

الباب الثالث

الحياة الاقتصادية

١- الزراعة والصناعة

كانت الأراضي العراقية تختلف في درجة الخصوبة وهذا يرجع باختلاف المناخ والظروف الطبيعية فالمنطقة الشمالية فيها من الرطوبة والأمطار، ما يكفي للأعمال الزراعية، أما المنطقتان الوسطى والجنوبية، فالأمطار فيها قليلة إلى حد يجعلها ذات مناخ صحراوي وشبه صحراوي^(١).

وإقليم العراق معرض للبرد الشديد الذي يؤثر على المحاصيل الزراعية، ففي فترة الخليفة القادر بالله سنة ٣٨٩هـ مرت بالعراق موجة برد قاسية، مصحوبة بسحب قاتمة ورياح شديدة، أدت إلى موت آلاف النخيل في سواد بغداد، أما الذي نجا فأصبح ضعيفاً، بحيث لم يستعد قوته، ويثمر من جديد إلا بعد عدة سنين^(٢)، وليست هذه وحدها أضرار البرد، فقد يترتب عليه أن يجمد الماء، كما حدث في عهد القادر بالله في شهر ذي الحجة سنة ٤١٧هـ، عندما جمد الماء في السواقي ومجاري الماء في حافات دخلة، فعاق هذا البرد القاسي الناس عن الحركة، كما أن انعدام المطر في تلك الفترة وعدم فيضان نهري دجلة والفرات، كان له أثره على الزراعة بحيث لم يزرع في السواد إلا القليل^(٣)، وأدت شدة البرد عام ٤١٩هـ إلى هلاك عد كبير من شجر النخيل، فانعدم الرطب، ولم يظهر في السوق إلا الرطب الذي كان يجلب من مناطق بعيدة مما ترتب عليه ارتفاع أسعاره، فبيع الرطب كل ثلاثة أرطال بدينار^(٤).

(١) سعيد عبود السامرائي: موارد العراق الاقتصادية ص ٣٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٢٠٦/٧.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٢٥/٨.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٣٦/٨.

وفي سنة ٤٢١ هـ حدث في غزنة سيل عظيم، أهلك الزرع والماشية وغرق كثير من الناس بسببه، وأضر بالجسر الذي بناه عمرو بن الليث^(١).

تعتمد الزراعة في المشرق بصورة رئيسة على مياه الأنهار التي تكثر في بلاد المشرق مثل نهر بلخ^(٢)، ونهر سجستان ونهر الأهواز^(٣)، ونهر زندروذ بأصبهان^(٤). أما سمرقند فهي كثير المياه وبها نهر جار، فليس في سكة ولا دار، إلا ويوجد بها ماء جار^(٥).

وهناك مجاري الماء المبنية تحت الأرض التي توجد في مدن خراسان بنوع خاص مثل: قم ونيسابور أكبر مدن المشرق في ذلك العصر، وبها كثير من مجاري الماء المغطاة، بعضها يظهر في خارج المدينة، ويروي البساتين وبعضها الآخر يمد الدور بالماء^(٦).

أما الزراعة في العراق فتعتمد بصورة رئيسة على نهري دجلة والفرات ورواسب هذين النهرين هي التي كونت هذه الأرض الغنية التي نسميها السواد^(٧)، وهناك أنهار تجري بمدينة المنصور والكرخ من الجانب الغربي متفرعة من نهر عيسى، المتفرع

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٣٥ / ٧.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٣٠١.

(٣) المقدسي: المصدر السابق ذكره ص ١٩.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢٧١ / ١.

(٥) ياقوت الحموي: المصدر السابق ذكره ١٢٣ / ٥.

(٦) آدم متر: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ / ٢٧٧.

(٧) د/ عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص ١٠.

والمقصود بالسواد سوادان: البصرة، وسواد الكوفة.

بدوره من نهر الفرات، وعلى جانبي هذا النهر قرى وضياح حتى إذا انتهى إلى المحول، تتفرع منه الأنهار التي كانت تحترق مدينة السلام^(١).

ومن الواضح أن المياه التي تنساب في نهري دجلة والفرات، تختلف من فترة إلى أخرى، كم أن كميات هذه المياه تزداد أو تقل تبعاً لحالة الفيضان التي تسرد النهر^(٢)، مثل ما حدث في عهد الخليفة القادر بالله سنة ٣٩٢هـ، عندما فاض نهر الفرات، فأدى ذلك إلى غرق بعض محلات الجانب الغربي من المدينة. وفي سنة ٤٠١هـ زادت مياه دجلة وأدى ذلك إلى تسرب المياه إلى كثير من الدور التي تقع على الشاطئ^(٣). ولذلك عنت الخلافة العباسية بتنظيم وسائل الري بأن وضعت مقياساً على نهر دجلة لمراقبة المياه في جميع المواسم وتسجيل قياسها^(٤).

وجهت الخلافة العباسية اهتمامها إلى تنمية موارد الثروة الزراعية، فحفرت الترعة والقنوات، وأقامت السدود والقناطر، وقد نالت الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات حظاً وافراً من العناية، فامتدت بها شبكة واسعة النطاق من الترعة والمصارف، فتحسنت زراعتها، ولم تحرم المنطق الواقعة شرقي دجلة من هذه العناية حتى أصبح العراق مزدهراً بالزراعة، كما أن الأقاليم الممتدة بين الكوفة والبصرة عمرت بالقرى والضياح^(٥).

وقد نالت الزراعة في العهد البويهي اهتماماً ملحوظاً، وأمر عضد الدولة البويهي

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ البغدادي ١/ ١١١-١١٢.

(٢) سعيد عبود السامرائي: موارد العراق الاقتصادية ص ٤٠.

(٣) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٢٦.

(٤) الزبيدي: المرجع السابق ذكره ص ١٢٤.

(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص ١٢٩.

بحفر الأنهار التي اندرست، وأعد إصلاح البثوق وحفر الآبار، وبنى القنطرتين العتيقة والجديدة على الصراه^(١).

كما أن شاشي الحاجب ويكنى أبا طاهر المشطب مولى شرف الدولة البويهبي، بنى قنطرة الخندق والياسرية والزياتين، وسد بثق الخالص وحفر ذابة يحيل وساق الماء منها إلى مقابر قریش^(٢)، وقام أبو الحسن علي بن محمد الكوكبي المعلم وزير بهاء الدولة في خلافة القادر بالله، بحفر الأنهار التي تخترق أسواق الكرخ^(٣)، كذلك سد فخر الملك «محمد بن علي بن خلف أبو غالب» وزير الأمير بهاء الدولة البثوق وعمر سواد الكوفة وعمل الجسر ببغداد الذي كان سهلاً^(٤).

كانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء في شرقي فارس متشعبة كل الشعب فقد جعل العباسيون ماء الري بمرور ديواناً أطلقوا عليه اسم «ديوان الماء»^(٥)، وهناك سد للماء أقيم جنوب مرو ووضع عليه أربع مائة غواص، يراعونه في ليلهم ونهارهم^(٦).

أما الأقاليم شرق فارس البعيدة عن مجاري المياه الكبرى، فكانت تروى بطريقة مبتكرة متقنة الصنع، ولم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار، وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض وهي تسقي ضياع البلد وتدور في محلاتها وتمد أهلها بقاء

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١١٤/٧.

(٢) ابن الجوزي: المصدر السابق ٢٨٨/٧.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ١٦٨/٧.

(٤) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٢٨٦/٧.

(٥) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٦٣.

(٦) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٢٩.

الشرب^(١)، ونلاحظ أن جميع السدود التي تقام على الأنهار تنقصها الصلابة؛ لأنها كانت تصنع من الخشب، أما خوزستان وفارس فكانت تتميز ببناء السدود الحجرية^(٢) كانت نظم الزراعة متنوعة حتى أن كل وادٍ أو قرية يكاد ينفرد بنظام معين يتلاءم مع ظروفه الطبيعية فنلاحظ مثلاً في أردبيل وهي من أشهر مدن أذربيجان أن الأهالي يستخدمون لحراثة الأرض ثمان من البقر لكل محراث، ولكل اثنتين منها سائق، على حين نجد أهالي بعض بلاد فارس لا يعتمدون على البقر في زراعتها مع كثرتها في بلادهم^(٣).

اقتصرت وتركزت الزراعة في العراق على المناطق المحيطة بالأنهار وهي:

١- السواد.

٢- واسط.

٣- البطائح.

٤- البصرة.

٥- الموصل.

ومن المحاصيل الزراعية التي اشتهر بها العراق: الحنطة، والشعير، والأرز، وكانت منطقة السواد مركزاً هاماً لزراعته، حتى أن عدداً كبيراً من فلاحيها كانوا

(١) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٣٧.

(٢) آدم متر: المرجع السابق ٢/ ٣٣١.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: المرجع السابق ص ١٣٠.

يدفعون جزءًا من خراجهم أرزاً^(١)، كذلك يزرع الأرز بكثرة في خوزستان^(٢)، كما كان يزرع أيضًا بإقليم طبرستان، أما كرمان فتكثر بها الذرة^(٣)، ويزرع السمسم والأرز والجوز، واللوز، والزبيب، والتين في بلخ^(٤)، ويزرع النخيل في جرجان بكثرة^(٥)، كما يزرع أيضًا في سجستان^(٦)، وتكثر زراعة التمور في كرمان^(٧).

واشتهرت واسط بزراعة قصب السكر وكانت أرض قصب فسميت واسط القصب^(٨)، ويزرع قصب السكر بكثرة في كابل^(٩)، واشتهر شمال فارس بجودة ما يزرع به من الفواكه وعلى الأخص البطيخ الذي كان يقدم ويحمل إلى العراق، وكان بطيخ مرو يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد^(١٠)، كما يزرع البطيخ في بعض مناطق العراق وله سوق ببغداد، تسمى «دار البطيخ»^(١١).

أما مدينة بخارى وهي أعظم مدن ما وراء النهر، فقد اشتهرت بزراعة جميع

(١) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٣٠.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٠.

(٣) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٠٢.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٣٢٣.

(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٤١.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٣٧.

(٧) المقدسي: المصدر السابق ذكره ص ٣٣.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ٢/ ٣٥٥.

(٩) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٠٨.

(١٠) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٣١.

(١١) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٣٢.

أنواع الفواكه^(١)، وتزرع الفواكه أيضًا في خوارزم^(٢)، وكان يزرع في أصبهان السفرجل والكمثرى والتفاح^(٣)، ومن أشهر الفواكه التي تزرع بالعراق الكروم والبرتقال والنانج^(٤)، كذلك تجلى الاهتمام في بلاد العراق والمشرق بالبساتين التي كان يزرع بها الرياحين والأزهار على اختلاف أنواعها، ومن أشهر البلاد التي زحرت ببساتينها الياقة بالعراق، الكوفة والبصرة وواسط وبغداد^(٥).

وفي المشرق كثرت البساتين الياقة والرياض الخضراء وخاصة في بلاد ما وراء النهر مثل بخارى وسمرقند^(٦).

٢- الصناعة:

اشتهرت بعض مدن العراق والمشرق بكثير من الصناعات؛ منها ما يتعلق بأدوات الترف، وكانت تصنع لفائدة الطبقات الثرية، وهناك قليل من الحرف يعود نفعها على جميع السكان، كحياكة الملابس والحدادة، وصناعة الأدوات النحاسية، وتشير المصادر إلى أن الحياكة في مدينة السلام ازدهرت منذ القرن الثالث الهجري، ففي بغداد تصنع ثياب القز، والأقمشة القطنية والعائم الرقيقة والمناديل بأنواعها وقد قامت بالموصل صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها^(٧)، وهناك مدن في

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٨١.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٧٨.

(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٣٢٠.

(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٣١.

(٥) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٣٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٨٤.

(٧) الزبيدي: المرجع السابق ص ١٤١.

العراق اشتهرت بصناعة المنسوجات مثل «الأبله» التي تصنع بها ثياب الكتان الرقيقة، وكان يصنع بالنعمانية أكسية وثياب صوفية حسنة كما اشتهرت الكوفة بعمائم الخز^(١).

كان الناس في العراق وبلاد المشرق الإسلامي، يعينون بصورة خاصة بالملابس فلكل طبقة منهم لباسها، ولكل صنف زيه وكل مناسبة تتطلب نوعاً خاصاً من الملابس مما شجع الصناع على تحسين إنتاجهم والإكثار من أنواعه^(٢)، فكان يصنع في مدينة بغداد الأزرق^(٣) ويصنع في نيسابور ثياب البيض والعمائم الشهبانية واشتهرت سمرقند بالديباج^(٤)، أما جرجان فاشتهرت بثياب الحرير^(٥)، وكانت أكبر مصانع نسج الحرير توجد في إقليم خوزستان^(٦)، وكان بالمشرق مراكز خاصة لنسج الكتان، وتعد مدينة كازرون من أكبر مراكز صناعته^(٧) في حين أن الكتان كان من أندر الأشياء بتلك البلاد^(٨).

انتشرت صناعة الورق في سمرقند وكان يعرف بالكاغد، واعتبرت مركزاً لصناعته وكان صاحب خزانة كتب الأمير البويهبي بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٨.

(٢) د/ عبد العزيز الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص ٨٨.

(٣) المقدسي: المصدر السابق ص ١٢٨.

الأرز: قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات.

(٤) المقدسي: المصدر السابق ص ٢٢٣.

(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٤١.

(٦) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٥٨/٢.

(٧) آدم متر: المرجع السابق ٣٥٤/٢.

(٨) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣٢٣/٣.

ظريف عجيب من الورق السمرقندي والصيني^(١).

وقد انتقلت صناعة الورق من سمرقند إلى العراق، فأنشئ أول مصنع للورق في بغداد في عهد الخليفة الرشيد^(٢)، ثم تطورت صناعة الورق في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فأخذت بغداد تصدر بعض إنتاجها منه إلى الخارج^(٣).

أما صناعة الصابون فقد كان لها محلة خاصة ببغداد في جانب الكرخ^(٤)، وقد ازدهرت بفارس والكوفة، صناعة الروائح العطرية المستخرجة من البنفسج والنرجس، واختصت مدينة جور في فارس باستخراج ماء الورد الذي كان يحمل إلى الصين والهند^(٥).

كان يصنع في بعض مدن العراق أنواع فاخرة من السجاد، بلغت ذروة الفن والإبداع، فكانت الزخارف البديعة والأشكال الهندسية تحلى قطع السجاد ويحيط بها عادة إطار من الكتابة الكوفية^(٦) وقد اشتهرت فارس وبلاد ما وراء النهر بصناعة الفرش الصوفية وكان للبسط الفارسية التي تصنع في أصبهان خاصة المكانة الأولى منذ عهد بعيد^(٧)، ومن الصناعات التي ازدهرت في العراق صناعة الخزف، وقد ابتكر الخزافون العراقيون الخزف ذي البريق المعدني، وهذا الابتكار جاء نتيجة تقدم

(١) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ / ٣٥٦.

(٢) آدم متر: المرجع السابق ٢ / ٣٦٥.

(٣) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١ / ٣٥٢.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١ / ٧٩.

(٥) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٣٢٤.

(٦) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٤٤.

(٧) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣ / ٣٢٤.

صناعة الخزف في العراق في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية في الدولة العباسية^(١).

كذلك اشتهرت بعض مدن العراق بصناعة الزجاج ومن أهمها بغداد التي يرجع ظهور صناعة الزجاج بها إلى عهد الخليفة المعتصم الذي أنشأ بها عدة مصانع، وقد برع أهل بغداد في صنع الأواني الزجاجية، كما أقيمت بسامراء مصانع لصنع الزجاج، وقد نقل إليها الخليفة المعتصم الصناع من البصرة، وبلغ من تقدم صناعة الزجاج في بعض مدن العراق، أن تمكن الصناع في تلك البلاد من صناعة الزجاج الملون ولا يختلف هذا النوع عن البلور في صفاته، كما نقشوا على المصنوعات الزجاجية، وبخاصة الأقداح، زخارف تمثل بعض أنواع النبات والطيور والحيوانات فضلاً عن كتابات كوفية^(٢).

٣- التجارة:

نشطت حركة التجارة في عدة مدن بالعراق والمشرق؛ منها: الكوفة التي اختطها سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ^(٣)، وقد اشتهرت بتجارة الزيت المستخرجة من السمسم وبذور الكتان والقطن.

وكان للزياتين سوق كبير على مقربة من دار الإمارة^(٤)، كما تفوقت في تجارة عمائم الخبز^(٥)، وقد نشطت حركة التجارة أيضاً في مدينة البصرة، وقد ساعد على نشاطها التجاري تعدد سواحلها وكانت البضائع ترد إليها من كافة أنحاء بلاد

(١) د/ محمد عبد العزيز مرزوق: الفن الإسلامي ص ١٢٩.

(٢) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٤٧.

(٣) ابن قتيبة: المعارف ٢٤٦، الاضطخري: المسالك والممالك ص ٥٨.

(٤) الطبري: تاريخه ١٥٤/٧.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٢٨.

المشرق، ولها سوق كبير يقام في ثلاث نواح منها كل يوم، ففي الصباح يجري التبادل التجاري في سوق خزاعة، وفي الظهر في سوق عثمان وفي المغرب في سوق القداحين^(١).

كان مركز التجارة الداخلية الأسواق، ويقيم كل طائفة من التجار في مكان معين منها، وكان التجار يمكثون في دكاكينهم إلى ما بعد الظهر، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء^(٢)، وقد تعددت أسواق بغداد، فهناك سوق العروس وسوق الصفارين وسوق الأنماط وسوق الدقاقين^(٣)، ومن نبين أسواق بغداد سوق الشام، وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال، أهلة عامرة الشوارع والدروب، وتمتد في شارع عظيم الدروب الطوال ينسب كل درب إلى أهل البلد الذين ينزلونه^(٤).

أما السوق العظمى ببغداد فهي «الكرخ» ومن أسواق الكرخ المنفردة سوق البطيخ للفواكه، وسوق البزازين لبيع الأقمشة، وسوق الصرافين، وسوق دار القطن وسوق الوراقين^(٥).

ولا شك أن نشاط وازدهار أسواق بغداد كان متناسباً مع درجة تقدم الدولة العباسية حتى قيل: إنه لم يكون لبغداد في الدنيا نظير في جلاله قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها، وأعلامها وعظم أقطارها وكثرة دورها ومنازلها وشعوبها ومحلاتها

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٤٢.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٨٥.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٥٥.

(٤) اليعقوبي: البلدان ص ١٦.

(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ص ١٤٣.

وأسواقها^(١).

ومما ساعد على نشاط الحركة التجارية في أسواق بغداد، دور الضرب وظهور نظام المصارف^(٢).

أما عن أسواق المشرق، فقد جرت العادة أن تجمع الدكاكين صنوفاً في مكان واحد، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة «كازرون»، وكانت مركز نسيج الكتان، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقاً عند مدينة جامع رام هرمز، وكانت غاية في الحُسن نظيفة قد بلطت وظللت وزوقت وجعل عليها دروب تغلق في كل ليلة، وهناك أيام مخصصة لبعض الأسواق فيوم الجمعة مخصص لسوق العسكر بخوزستان^(٣)، وتوجد أسواق في فارس مثل: سوق البزازين على نسق سوق سجستان، وعلى هذا السوق أبواب تغلق كل ليلة^(٤)، كذلك من المدن التي اشتهرت بأسواقها أصبهان^(٥)، وكان بمدينة «مرسمندة» بخراسان مجمع وسوق في رأس كل شهر، يفد إليه الناس من الأماكن البعيدة^(٦)، وفي سمرقند أسواق خاصة للتجارة^(٧)، وفي بخارى سوق مشهورة تسمى سوق «ماخ» وكانت تُقام مرتين في العام لمدة يوم واحد^(٨).

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ١٢٢.

(٢) حمدان عبد المجيد الكبيسي: أسواق بغداد ص ٨ رسالة دكتوراه ١٩٧٧ م.

(٣) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٨٦.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٢٥.

(٥) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٤٢.

(٦) آدم متر: المرجع السابق ذكره ٢/ ٣٢٤.

(٧) المقدسي: المصدر السابق ص ٣٣.

(٨) النرشخي: تاريخ بخارى ص ٣٨.

كانت حركة الملاحة على نهر دجلة كبيرة ، فتنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد مارة بالموصل، وكانت تستعمل لإخراج السفن من الماء على نهر دجلة طريقة خاصة وذلك أن الملاحين كانوا -وهم على ظهرها- يجذبون حبلًا بحريًا على بكرة مثبتة على نقطة من الشاطئ ، ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائر منتظمة على ظهر السفينة^(١)، ويصف المقدسي^(٢) حركة الملاحة في شط دجلة قائلاً: «والناس ببغداد يذهبون ويحيئون ويعبرون في السفن ونرى لهم جلبة وضوءاء في ذلك الشط».

أما نهر الفرات فحركة الملاحة فيه نشطة للغاية، والبضائع التي تنقل على هذا النهر بكميات كبيرة، هي خشب البناء من جبال أرمينية، وزيت الزيتون من الشام ويتفرع من نهر الفرات أنهار أخرى، تجري فيها السفن، ومما يجعل سير السفن في هذه الأنهار يسيرًا أن مستوى نهر الفرات أعلى قليلاً من مستوى نهر دجلة ويجري على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب^(٣).

ومن الأنهار الهامة في بغداد نهر عيسى الأعظم تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة، ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر^(٤) ويعد أهل البصرة وأهل فارس أحسن تجارة الدولة الإسلامية، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التجارة.

وكان التجار المسلمون من العرب والفرس، يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها، بين الهند وأوروبا، وقد أدى ذلك إلى تدفق المسلمين على

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٣٩٦-٣٩٩.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ١٢٤.

(٣) آدم متز: المرجع السابق ٢/ ٢٩٤.

(٤) اليعقوبي: البلدان ص ١٨.

الساحل الغربي من بلاد الهند الجنوبية، كما نشأت علاقات ودية وطيدة بين هؤلاء التجار وحكام تلك البلاد من الهنود الذين تولوا حمايتهم نظرًا للرخاء الذي ساد بلادهم، بسبب اشتغالهم بالتجارة فيها^(١)، وكان للعرب جاليات تقيم بسواحل الهند وبعض مدنها في الوقت الذي تجاوز فيه جيوشهم حدود فارس، واستولت على بلاد السند، وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية في الملتان والديبل^(٢)، وكانت سفن فارس وبلاد العرب تمر بهذه البلاد في ذهابها إلى الهند والصين وفي عودتها^(٣).

أما التجارة في المشرق فاشتهرت بنيسابور بتصدير ثياب البيض الشهبانية^(٤) ومن بلخ كان يصدر الصابون والسمسم والأرز والجوز واللوز، والزبيب والتين والكبريت والرصاص، ومن سمرقند يصدر الديباج^(٥).

أما مراكز التجارة الخارجية التي ارتبط بها العراق وأقام معها صلات تجارية وثيقة فهي:

١ - عدن: وقد قال عنها المقدسي: أنها دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات^(٦)، وقد اشتهرت عدن بالتجارة لوقوعها على مقربة من مدخل البحر الأحمر جنوبًا حتى أن السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب ترسو

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ / ٣٨١.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٤٧.

(٣) HEYD HIT DU COMMERCE DE LEVONT AU MOYEN AG TOME ١.P.3233

(٤) يطلق على الثياب الرقيقة التي تجلب من مرو شاهجان.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٣٢٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٨٥.

عليها^(١)، وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين أفريقيا وبلاد الغرب، ونقطة ارتكاز بين الهند والصين ومصر^(٢).

٢- سيراف: تقع على الخليج الفارسي وتقصدها المراكب من جميع البلاد وتمر بها صادرات فارس ووارداتها، وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها يقيمون في مساكن عالية تتكون من عدة طوابق مبنية من خشب الساج المستورد من الهند وغيره من الأخشاب المجلوبة من شرق إفريقيا، كما أن تجار سيراف، وأصحاب سفنها كانوا يبالغون في الإنفاق على مبانيهم حتى إن أحدهم أنفق في بناء داره ثلاثين ألف دينار وكانت ملابس تجارها مع هذا الغنى بسيطة إلى درجة تبعث على العجب، فمنهم من يملك الأربعة آلاف درهم ومع ذلك لا يتميز في ملبسه عن أجيره^(٣).

٣- عمان: كانت عمان إحدى المراكز الرئيسة التي تمر بها التجارة بين شرق أفريقيا والخليج الفارسي إلى العراق^(٤).

٤- البصرة: وكانت ميناء العراق العظيم وأكبر مركز للتجارة البحرية، ويعد أهل البصرة من أنشط التجار في الدولة الإسلامية بصفة عامة، وأبعدهم صيتاً وشهرة فكانوا يجوبون بلاداً كثيرة وأصقاعاً نائية طلباً للكسب والربح^(٥).

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٩.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٤٣٦.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٥٣.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ص ٩٠.

(٥) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٦٥.

أشهر الطرق البرية للعراق

كان بالعراق كثير من طرق التجارية البرية نذكر منها:

الطريق الممتد من الكوفة إلى البصرة والطريق بين واسط وسوق الأهواز^(١)، وقد حرص الأمراء البويهيون في خلافة القادر بالله على حماية طرق العراق التجارية ضماناً لازدهار التجارة^(٢).

كانت صلة بغداد بالصين عبر الطريق البري ضعيفة إن لم تكن معدومة إذ إن الرحلة كانت طويلة، وكثيراً ما أغلقت الحكومة الصينية الطرق المؤدية إلى الصين كوسيلة للحد من التغلغل الأجنبي.

أما الطريق البحري فكان أسهل لدرجة أن بعض التجار كانوا يأتون من سمرقند إلى البصرة، ومن هناك يسلكون الطريق البحري إلى الصين^(٣).

وفي عام ٣٣١ هـ أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد الساماني في بخارى، ويطلب مصاهرته فرضي نصر أن يزوج ابنه من ابنة ملك الصين، فكان ذلك مما يسر للتجار المسلمين الطريق إلى الصين^(٤).

ومن الطرق التجارية الطريق الذي يمتد من غرب أوربا إلى المشرق، ويبدأ من

(١) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٣٦٥.

(٢) الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ١٨٥.

(٣) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٧٣/٢.

(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٥٠.

بلاد الأندلس إلى أن يصل إلى العراق مارًّا بالكوفة وبغداد والبصرة، ثم إلى فارس مارًّا بالأهواز، ثم كرمان والهند والصين^(١).

وهناك طريق تجاري يمتد من بلاد الروس الشمالية إلى المشرق عن طريق بحر قزوين ثم يتجه إلى مرو وبلخ وبخارى وسمرقند ببلاد ما وراء النهر، ومنها على الصين، ومما جعل لهذا الطريق أهمية تجارية جهود السامانيين في إقرار الأمن في خراسان، وبلاد ما وراء النهر حتى أن قوافل التجار كانت تسير في أمن ودعة^(٢).

وهناك الطريق التجاري الذي يسير من المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند نحو فارس مارًّا بولاية سجستان وإلى الشمال من هذا الطريق، كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان وتوصلها إلى كابل وغزنة وغيرهما، ومن هنا كانت القوافل تسير نحو خراسان غربًا وبخارى شمالًا^(٣).

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٣٢٦.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ذكره ٣/ ٣٢٦.

(٣) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٥٠.

٤- المصادر المالية

قامت موارد الدولة في العراق والمشرق في عهد الخليفة القادر بالله فيما يلي:

١- الجزية.

٢- الخراج.

٣- المكوس.

٤- الضرائب.

١- الجزية

هي عبارة عن مبلغ معين من المال، يوضع على أهل الذمة، ويسقط بالإسلام، وقد ثبتت بالقرآن الكريم لقوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: ٢٩].

فرضت الجزية في عهد الخليفة القادر بالله العباسي على أهل الذمة من اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وبلغ مقدار الجزية في مدينة بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري مائة وستين ألف درهم، وبديل هذا الرقم على أنه كان ببغداد نحوًا من خمسة عشر ألفًا من أهل الذمة، فإذا أسقطنا منهم ألف يهودي «عدد اليهود في مدينة بغداد» نجد أن هناك حوالي أربعين أو خمسين ألف نصراني في مدينة بغداد يدفعون الجزية وإلى جانب هذا العدد من النصارى في مدينة بغداد، كان هناك في مدينتي

الرها وتكرت كثير من النصارى^(١).

أما اليهود الذين يدفعون الجزية في العراق والمشرق، فقد كثر وجودهم في المدن التالية: الحلة، والكوفة، والبصرة، وهمدان، وأصفهان، وشيراز وغزنة، وسمرقند.

كان أهل الذمة ثلاث طبقات تدفع الدنيا منها اثني عشر درهماً، والوسطى أربعة وعشرين، والعليا ثمانية وأربعين درهماً في السنة أو ديناراً ودينارين وثلاثة دنائير في البلاد التي عملتها الذهب وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ولا يدفعها ذوو العاهات ولا المترهبون وأهل الصوامع^(٢).

كانت الجزية تؤخذ على أقساط، تبلغ أحياناً ستة أو خمسة وأحياناً أربعة أو ثلاثة أو اثنين، وقد فرضت في العراق أول الأمر في كل شهر؛ وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون مرتباتهم في كل شهر، ولكن في عام ٣٦٦هـ، وقبل خلافة القادر بحوالي خمسة عشر سنة تغير نظام دفع الجزية، فأمر الخليفة الطائع بأن تؤخذ الجزية من أهل الذمة في المحرم من كل سنة، وبحسب منازلهم وإلا تؤخذ من النساء، ولا ممن لم يبلغ الحلم؛ ولا من ذوي سن عالية، ولا ذوي العاهات ولا من فقير معدم، ولا من الرهبان في الأديرة، وقد جرت العادة بأن يعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أدائه لها، وقد راعى الحكام المسلمون الرفق والإنصاف في جباية الجزية من أهل الذمة، وتقضي القاعدة الفقهية فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعها بأنه «لا يضرب أحد من أهل الذمة لحملهم على أدائها..» ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى

(١) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٨٤.

(٢) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٩٦.

يؤدوا ما عليهم^(١).

٢- الخراج

هو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة، وأبقاها الخلافة في أيدي أصحابها ووقفها على مصالح المسلمين^(٢)، كما يؤخذ أيضًا من الأرض التي فتحها المسلمون سلمًا وتركوها في يد أهلها^(٣).

أما تقدير الخراج فإنه يعود إلى كمية المحصول ومساحة الأرض نوع الزرع يقول الماوردي: «أن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها في زيادة الخراج، ونقصانه، أحدها: يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها، أو رداءة يقل بيعها ريعها، والثاني: يختص بالزرع من اختلاف أنواع من الحبوب والثمار فمنها ما يكثر ثمنه، ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه، والثالث: يختص بالسقي والشرب، ومن الناس من اعتبر شرطًا رابعًا، وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها»^(٤).

اقتدى الخلفاء العباسيون بالفرس في جباية الخراج، إبان النوروز غير أن الفرس كانوا يكسبون السنين فيزيدون يومًا في كل أربع سنين، فلما أبطل الإسلام كبس السنين، نشأ عن ذلك أن حل ميعاد جباية الخراج قبل نضج الزرع، فلذلك أخر المتوكل جباية الخراج سنة ٢٤٣هـ سبعة عشر يومًا من حزيران حتى يتمشى ذلك مع

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ١٠٩-١١٠.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١١٠.

(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ٥٥.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٤٣.

مصلحة الزارعين وسار الخليفة المعتضد على سياسته في تأخير النوروز^(١).

وقد زاد الخراج في عهد المعتضد في العراق وبلاد الفرس لاهتمامه بنظام الري، وحفر القنوات، ورعاية الجسور، ولم يرتفع السواد لأحد بعد عمر رضي الله عنه بمثل ما ارتفع له إلا المعتضد بالله فإن أبا العباس أحمد بن محمد بن الفرات رفعه في أيامه ثلاثمائة ألف وأربعين ألف كراً شعيراً، وحصل من الخراج وأبواب المال أكثر من ألف ألف دينار^(٢).

أما مال الخراج والضياع العامة الذي يرتفع من أعمال فارس وكرمان - بعد إسقاط النفقات - فكان يحمل جزء منه إلى بيت المال العام.

وجزاء إلى بيت المال الخاص، وينفق منه على متطلبات البلاد التي أخذ منها الخراج^(٣)، وقد ساد في وقت الخليفة القادر بالله نظامان لجباية الخراج:

١ - نظام المقاسمة

٢ - نظام الالتزام.

ففي النظام الأول يفرض الخراج: على حسب كمية الغلة ويحصل عيناً، أما في نظام الالتزام أو الإقطاع، فكان الخراج الذي يؤدي من الأرض المقطعة يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع وبين الحكومة، ويبلغ العشر على ما قرره الفقهاء.

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص ١١٠-١١١.

(٢) الصابئ: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٠٩.

(٣) آدم متمر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١ / ٢٣٠.

كان هناك نوعان من الإقطاع: الإقطاع المدني، والإقطاع العسكري، ويشمل:

النوع الأول الأراضي المقطعة للملتزمين، وكانت أراضيهم تعود إلى الحكومة في حالة مصادرة أصحابها أو عندما يحل بها الخراب، وقد شاع منذ مستهل القرن الرابع الهجري منح الموظفين إقطاعات مدنية بدلاً من الرواتب، ولما استأثر بنو بويه بالسلطة في العراق صاروا يمنحون الوزراء إقطاعاً يقوم مقام الراتب يبلغ إيراده ٥٠.٠٠٠ دينار سنوياً.

أما الإقطاع العسكري فكان يمنح لقواد الأتراك وغيرهم من الجند، وكان الوزراء هم الذي يحددون خروج هذه الإقطاعات بأنفسهم، وأصبح هذا مجاًلاً لقبول الرشوة والهدايا، حتى يحددوا لها خراجاً مناسباً، وقد ازدادت الإقطاعات العسكرية في عهد أمراء بني بويه، ويرجع السبب في ذلك على قلة خبرة البويهيين في الإدارية واضطراب الجند، وهذه الإقطاعات تعطى للقواد والجند بدلاً من المرتبات^(١).

٣- المكوس

هي عبارة عن ضريبة تؤخذ من التجار في المرافد وبمعنى آخر هي الرسوم الجمركية التي يطلق عليها «مراصد المكس» وتعتبر مورداً هاماً من موارد الدخل للدولة^(٢).

كانت تفرض ضرائب المكس على البضائع المنقول من ناحية إلى أخرى براً أو

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في المشرق ص ١١٢-١١٣.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٢٢٣.

نهرًا، وقد أنشئت لجبايتها دور للمكوس في أماكن مختلفة وخاصة على ضفاف الأنهار، وكان يمد جبل بين ضفتي النهر لمنع مرور السفن قبل أن تجبى منها الضريبة المقررة^(١).

وفي سنة ٣٧٥هـ في عهد صمصام الدولة كان المكس أن يؤخذ على الثياب الإبريسميات والقطنيات التي تنسج ببغداد بأن يجعل عليها ضريبة العشر لكن الناس ثاروا على هذا الوضع فأعفاهم من ذلك^(٢)، وكانت المكوس تؤخذ بالعراق على البضائع في داخل البلاد، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام ٣٠٠هـ موضعات تأخذ الحكومة عندها المكوس على البضائع^(٣).

أما في المشرق فلم تفرض المكوس على البضائع إلا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ولم ينفرد البويهيون وحدهم بفرض المكوس، ففي سنة ٣٨١هـ فرض خلف بن أحمد حاكم سجستان رسومًا على بضائع وأرباح التجار^(٤)، وكان يؤخذ من كل حمل دخل اليهودية وهي القسم التجاري في أصفهان ثلاثون درهماً^(٥).

٤ - الضرائب

كان دخل الدولة عن طريق الضرائب كثيرًا حيث كانت تؤخذ الضرائب من إقليم خراسان الذي خضع في القرن الثالث والرابع لأمراء كثيرين في مقدمتهم

(١) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١١٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٧٨، أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ١١٧.

(٣) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٤٠٢.

(٤) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ٢٨٧.

(٥) آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/ ٢٤١.

السامانيون والبويهيون.

أما فارس فكانت تدفع ضرائب تفوق غيرها بكثير، وفي ذلك يقول المقدسي^(١): «قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم، وأثقلهم خراجاً وأذهبهم نفوساً وهم لم يعرفوا عدلاً قط».

وهناك ضرائب تُفرض على تجار أهل الذمة المقيمين بالبلاد الإسلامية وتبلغ ٢٠ / ١ من قيمة بضائعهم، وتجبي مرة في السنة متى تجاوزت قيمة البضائع مائتي درهم.

والضرائب التي تفرض على تجار أهل الذمة القادمين من خارج البلاد الإسلامية، وتبلغ عُشر قيمة بضائعهم إن زادت القيمة على مائتي درهم، كذلك فرضت الضرائب على الدور والخوانيت والأسواق، ويطلق على هذا النوع من الضرائب مستغلات^(٢)، وقد فرضت في سنة ٤٢١ هـ في البصرة ضرائب جديدة، ففرض على سوق الدقيق ومقالي الباذنجان وسميريات المزارع، ودلالة ما يباع من الأمتعة وأجر الحمالين الذين يرفعون التمر إلى السفن^(٣).

وهناك ضرائب فرضها عضد الدولة على أهل العراق في بيع الدواب: كالخيل والحمير والجمال أشار إليها ابن الأثير^(٤) في قوله: «أحدثت في آخر أيامه رسوم جائزة في المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة، وزاد على ما تقدم من

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٤٤٨.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١١٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣٥١ / ٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١٥ / ٧.

فمنع عمل الثلج والقز وجعلها متجراً خاصاً^(١).

وفي سنة ٣٨١هـ فرض الوزير أبو نصر سابور ضريبة عشر الثمن على المنسوجات الحريرية والقطنية المصنوعة في مدينة بغداد وقد ثار ضده كثير من الأفراد، لكنه أصر على فرض هذه الضريبة وفي ذلك يقول الصابي^(٢): «إن هذا الرسم ثبت ورتبت في جبايته وينظرون ومتولون، وأفرد له ديوان في دار البركة، ووضعت الختوم على جميع ما يقطع من المناسج وبيع ويحمل، واستمرت الحال على ذلك إلى آخر أيام عميد الجيوش سنة ٣٩٠هـ، ثم أسقطه وأزال رسمه».

وهناك ضرائب فرضها أمراء بني بويه مثل ضريبة الطواحين يقول أبو شجاع: إن عضد الدولة أدخل يده في جميع الأرجاء والطواحين وجبا ارتفاعها وجعل لأهلها شيئاً منه، وكثرت الظلامة من ذلك في آخر أيامه فأزال صمصام الدولة بعده كان قد قرر على الأرحاء والطواحين وأجرى الناس على رسومهم القديمة وأطلق لارتفاع للملاك^(٣).

كانت الأموال التي تأتي من المصادر المالية التي سبق ذكرها تنفق على مصالح الدولة فيما يلي:

١- الأرزاق والرواتب.

٢- نفقات الحروب.

٣- نفقات إصلاح مرافق الدولة.

(١) الصابي: تاريخه ص ٤٦٨.

(٢) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٣/ ٧٧-٧٨.

٤- العطايا والمنح.

١- الأرزاق والرواتب

كان جند الدولة والعمال والولاة وغيرهم من الموظفين يتقاضون أرزاقاً ومرتبات من بيت المال تصرف لهم بانتظام مقابل الأعمال التي يقومون بها، وأحياناً كان الجند يتقاضون عطاءً إضافياً في المناسبات الهامة، كتولية خليفة أو عند خطر يهدد الدولة، أو إخماد ثورة أخلت بأمنها^(١)، وإذا لم تدفع الرواتب للجند يقومون بالثورات، مثل ما حدث عند تولية الخليفة القادر بالله الخلافة، حيث شغب الديلم ببغداد، وامتنعوا عن مبايعة الخليفة فأرضاهم بهاء الدولة بالأموال^(٢)، كذلك ثار الجند مرة أخرى سنة ٣٨٣هـ، بسبب فساد السعر وغلائه وتأخر دفع رواتبهم، ونهبوا دار الوزير أبي نصر سابور^(٣)، ولم تكن الرواتب تصرف في مواعيد واحدة في أنحاء الدولة العباسية، ففي خراسان كان بعض الجند يصرفون مرتباتهم مرتين في السنة، على حين كانت هناك فرق أخرى تُصرف أرزاقها ثلاث وأربع مرات في السنة، وكان هذا الوضع موجوداً في العراق في بعض الأحيان، وكان يطلق على أرزاق الجند في خراسان «الأطماع» وفي العراق «الأرزاق»^(٤).

٢- نفقات الحروب

اهتمّ الخلفاء بتجهيز جيوشهم وأنفقوا كثيراً من الأموال في سبيل تزويدها

(١) محمد توفيق خفاجي: تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس ص ٢٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٤٨/٧.

(٣) أبو شجاع: ذيل كتاب تجارب الأمم ٢٥٠/٣.

(٤) محمد توفيق خفاجي: تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس ص ٢٤٢.

بالمعدات الحربية، كما أنشئوا الثغور والحصون، وكان الخليفة لا يبخل بالمال على الجيش، من أجل حماية الإمارات الخاضعة لخلافته، فلو حدث تمرد في إحدى هذه الإمارات بادر الخليفة بإرسال الجيش لإخماده، فلما ولي أمير بني عقيل «أبو الذواد محمد بن المسيب» الموصل، بعث الأمير البويهبي بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ أبا جعفر الحجاج بن هرمز بعسكر لمحاربته وزوّده بالمال^(١).

كذلك عندما خطب الأمير العقيلي قرواش سنة ٤٠١هـ للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في الموصل والأنبار والكوفة والمدائن^(٢).

طلب الخليفة القادر بالله من بهاء الدولة محاربة قرواش، فسير بهاء الدولة إليه عميد الجيوش بعد أن زوّده بالمال وقدره مائة ألف دينار^(٣)، وفي المشرق كان السلطان محمود الغزنوي يستفيد من الأموال التي يحصل عليها من غزواته للهند في حروبه القادمة^(٤).

٣- نفقات إصلاح مرافق الدولة

عنى الخلفاء العباسيون عنايةً كبيرةً بمرافق الدولة فرصدوا الأموال للإنفاق منها على حفر الترع وإقامة الجسور وبناء المدن، وفي عهد الخليفة القادر بالله اهتم الخليفة والأمير البويهبي والوزراء على حدٍّ سواء بمرافق الدولة، فقد أحصيت

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٥٧.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص ٣١١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣٤٣.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق ذكره ١١/ ٣٣٠.

الحمامات في أيام بهاء الدولة سنة ٣٨٢هـ فبلغت ألفاً وخمسمائة حمام^(١)، وفي سنة ٤٠٢هـ أمر القادر بالله بعمارة مسجد الكف وتجديد أبنيته^(٢)، وفي نفس السنة هدم فخر الملك وزير الأمير البويهبي بهاء الدولة الدار المعزية وجدد أبنيتها وأنفق على إصلاحها الكثير من المال^(٣).

٤- العطايا والمنح

دأب العباسيون منذ قيام دولتهم على منح أنصارهم وعماله الكثير من المنح والعطايا من الأموال والهدايا، فقد بعث الخليفة القادر بالله إلى أمير بني عقيل قرواش بهدية مقدارها ٣٠ ألف دينار عندما أعاد الخطبة للعباسيين^(٤)، كما أنعم الخليفة القادر بالله على محمود الغزنوي بالخلع الخليفية سنة ٤٠٤هـ مكافأة له على فتوحاته في الهند ونشره الإسلام هناك^(٥). كذلك كان السامانيون يبذلون المنح والعطايا للعلماء والأدباء والشعراء^(٦).

وقد نهج الغزنويون فيما بعد نهجهم في تشجيع العلماء والأدباء، خاصة في عهد السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود اللذين أنفقا على العلوم والآداب الشيء الكثير من المال وأجزلا العطاء لكل من نبغ فيها^(٧).

(١) الصابي رسوم دار الخلافة ص ٢٠.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٢٥٦/٧.

(٣) ابن الجوزي: المصدر السابق ذكره ٢٥٧/٧.

(٤) خاشع عيادة المعاصيدي: دولة بني عقيل في الموصل ص ٥٤-٥٥ رسالة ماجستير.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم ٥٢/٨.

(٦) ف. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠٣.

(٧) د/ عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص ٩٧.

اهتمت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بتحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها ومن ثم أقامت بيتاً للمال يتولى صيانه.

كان هناك ديوانان لبيت المال أحدهما: ديوان بيت المال العام، وهو بمثابة خزانة الدولة التي يثبت في سجلاتها أصول الأموال العامة التي تحصل عليها الدولة.

أما بيت مال الخاصة فهو خزانة الخليفة، غير أن تطور الأحوال المادية أدى إلى تعاون بيت المال وبيت مال الخاصة في نفقات الدولة^(١)، ويحمل إلى بيت مال الخاصة مال الخراج والضياح الذي يؤخذ من أعمال فارس وكرمان والمال المصادر من الوزراء المعزولين والكتاب والعمال^(٢).

وقد ظهر في العهد البويهي ديوانان: أحدهما: ديوان الخليفة العباسي، والآخر: ديوان الأمير البويهي، وكان ديوان الخليفة يتولى رئاسته كاتب الخليفة العباسي الذي اقتضرت أعماله على إدارة إقطاعات الخليفة والإشراف على ما يرد إلى بيت المال من الأموال.

أما ديوان الأمير البويهي فقد تقلد رئاسته كاتب الأمير، ولما صار الوزراء يعينون من قبل البويهيين أصبح وزير البويهي يتقلد رئاسة الديوان^(٣).

لم تنعم بلاد العراق والمشرق بالاستقرار الاقتصادي فقد ضجَّ الناس من غلاء الأسعار ففي سنة ٣٨٢هـ بيع الرطل من الخبز بأربعين درهماً^(٤).

(١) محمد توفيق خفاجي تطور النظم الإدارية والمالية في بلاد العراق والفرس ص ٢٦١.

(٢) د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٢٢.

(٣) د/ الزبيدي: العراق في العصر البويهي ص ٨٦.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ١٦٨/٧.

الكر: اثنا عشر وسق والوسق ستون صاعاً.

وفي السنة التالية بيع كر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم^(١)، كما تعرضت خراسان لأزمة غلاء شديد عام ٤٠١ هـ انعدم فيها القوت^(٢)، وقد أدى تفشي الغلاء على حمل المسؤولين في الدولة على وضع حد ارتفاع أسعار السلع، ففي سنة ٣٩٠ هـ وفي عهد الأمير البويهبي بهاء الدولة ظهرت محاولات لإصلاح الفساد الذي تطرق إلى النظام المالي في الدولة، وكان رائدها الوزير أبو علي الحسن بن أستاذ هرمرز الملقب بعميد الجيوش، فنظر في الجرائد «دفترارزاق الجيش في الديوان»، وقسّم الناس إلى طبقات حسن حالتهم المادية ورفع كثيرًا من الضرائب الجائرة ونظم مواعيد جباية الأقساط المستحقة على المزارعين، غير أن هذه الإصلاحات كانت فردية تعتمد على رغبة الأمير أو الوالي، وتزول بموته في أغلب الأحيان^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٩٥.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ٧/ ٢١٤.

(٣) الزبيدي: العراق في العصر البويهبي ص ٢٣٢.